أثر الفن الاسلامي
في فنون الغرب

للدكتور زكي محمد حسن
الأمين العلمي لدار الآثار العربية

ورث الاسلام فنون رومة وبيزنطة وإيران وكلديا وأشور، وتأثر المسلمون بالأساليب الفنية في البلاد التي خضعت لهم وانتشر فيها دينهم، فظهر في عالم الوجود فن بل فنون إسلامية أثرت بدورها في فنون الغرب، وتركت فيها ذكريات قل أن تخفى على من لهم دراية بتاريخ الفنون في العالم

والواقع أن العالم المتمدين في القرون الأولى بعد الميلاد كان قد سئم الفن اليوناني القديم، وتاق إلى نوع من التجديد ينقذه من منتجات هذا الفن التي أعوزها التنوع والابتكار، فتطلع إلى تقاليد فنية أعظم أبهة وأكثر حرية في الزخارف والموضوعات لا يعدل ما فيها من خيال ساحر وجاذبية ومفاجأة عظيمتين إلا ما تمتاز به من أسرار في مزج الألوان تملأ البصر وتبهج الخاطر. تلك الأساليب الفنية المنشودة وجدها العالم المتمدين عند الساسانيين أولاً، ثم في الفنون الاسلامية بعد أن امتدت الأمبراطورية العربية واتسعت أرجاؤها. أما حلقتا الاتصال بين الشرق والغرب، والمعبران اللذان اتخذتهما الأساليب الاسلامية للوصول إلى أوربا، فهما الأندلس، والحروب الصليبية

ففي الأندلس أينعت المدنية الاسلامية، وأدخل العرب صناعة الورق، وأصبحت قرطبة في القرن العاشر أكثر المدن في أوروبا ازدهاراً وأعظمها مدنية؛ وكان عصر ملوك الطوائف باعثاً على تعدد مراكز العلم والأدب والفن في شبه الجزيرة. ومجاء ملوك المرابطين والموحدين فكان اضطهادهم للمستعربين من بني الأندلس سبباً في هجرتهم إلى الشمال، فزاد بذلك محيط المدنية الاسلامية اتساعاً، ونقل هؤلاء المستعربون إلى مهجرهم الجديد كثيراً من عادات المسلمين وأزيائهم وصناعاتهم، وما لبث نجم المسلمين في الأندلس أن أذن بالأفول، فتقدمت فتوحات المسيحيين، وأخذ نفوذ العرب في التقلص، ودخل كثير منهم تحت السلطان المسيحي، فصاروا يعملون للملوك والأمراء الاسبان، وتعلم منهم غيرهم، فانتشرت أساليبهم الفنية؛ وكان سقوط طليطلة سنة ١٠٨٥، وقرطبة سنة ١٢٣٦، وأشبيلية سنة ١٢٤٨، أكبر عامل على امتزاج الصناع العرب أو المستعربين بغيرهم. ثم كان سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢ خاتمة هذا الطور الذي تعلم فيه صناع الغرب عن المسلمين كثيراً من أسرار صناعاتهم في العمارة والفنون الفرعية؛ ولعل أهم مظهر لهذا الطور الطرز الاسباني الذي ينسب إلى المدجنين style mudéjar أو المسلمين الذين دخلوا خدمة المسيحيين بعد زوال دولة العرب؛ وقد نشأ هذا الطرز في طليطلة واشتغل الصناع «المدجنين» بزخرفة الكنائس ودور الخاصة في أنحاء اسبانيا، ونبغوا في الفنون الفرعية كصناعة الخزف والمنسوجات والنقش على الأخشاب، وكانت لهم في ميدان العمارة آثار تذكر، وأهمها قصر أشبيلية L'Alcalzar الذي بنوه للملك بدرو سنة ١٣٦٠ والذي ظل مقراً للأسرة الملكية حتى إعلان الجمهورية منذ سنوات فأصبح متحفاً يعجب الزائرون بعمارته العربية وبما جمعه فيه ملوك اسبانيا من تحف إسلامية نادرة

أما الحروب الصليبية فلا يعنينا من نتائجها إلا أنها كانت كالأندلس وجزيرة صقلية وسيلة إلى نزاع دائم تتبعه علاقات متواصلة بين المسيحية والاسلام، وأوجدت هذه الحروب منفذاً لتجارة الجمهوريات الايطالية الناشئة كجنوا والبندقية وبيزا، وكان من النتائج العملية لتأسيس المملكة اللاتينية في بيت المقدس نمو تجارة هذه الجمهوريات وإنشاء معاقل لها في الشرق الأدنى

وإن صح القول بأن الأندلس وجزيرة صقلية لعبتا الدور الأكبر في نشر الثقافة الاسلامية في الغرب، وان فضل الحروب

الصليبية فى هذا الميدان لم يكن كبيراً نظراً لأنه لم يكن فى الشام فى عصر الحروب الصليبية مدنية تعادل مدنية الأندلس أو صقلية فضلاعن أن هذه الحروب لم تكن مرتعاً خصيباً للدرس والتحصيل وتبادل الثقافة ، نقول إن صح ذلك فى ميدان العلوم والآداب فانا نعتقد أن الدور الذى لعبته الحروب الصليبية فى نقل الصناعات والفنون الاسلامية إلى أوربا خطير لا يستهان به . ولعل استعمال الزنوك عند أمراء المسلمين فى الحروب الصليبية كان أكبر عامل فى تطور علم الزنوك والأشعرة عند الغربيين فأصبحت له اصطلاحاته الدقيقة وقواعده الثابتة ؛ وكانت الحروب الصليبية أيضاً وما تبعها من انتشار التجارة الغربية السبب فيما فعله البنادقة من صك نقود ذهبية للتعامل مع المسلمين وعليها كتابات عربيـة وآيات قرآنية فضلاً عن التاريخ الهجرى ، وظل هـذا حتى احتج البابا أنسونت الرابع سنة ١٢٤٩

وليس بخفياً أن العمارة كانت أجل الفنون عند العرب فبلغوا فيها شأواً بعيداً ، وأخذوا من الأمم التى اختلطوا بها ما أخذوا ، وابتدعوا أساليب جديدة غاية فى الجودة والابداع ، ثم أخذت عنهم أوروبا كثيراً من هذه الأساليب . ولكن العلماء ليسوا على اتفاق فى هذا الرأى ، فبعضهم يرى أن العرب لم تكن لهم عمارة خاصة ، وإن صح أن هناك أوجه شبه بين طرُزهم المعمارية وبين الطرُز الأوربية فانما ذلك لأن مصدر هذه الطرز كلها واحد . ومهما يكن من شئ فاننا نفضل ألا نعرض للعمارة فى هذا المقال مكتفين بالتحدث عن الفنون الفرعيـة les arts mineurs أو المنقولة كما اصطلح بعضهم على تسميتها

ولسنا نذهب إلى أن المسلمين وصلوا فى هذه الفنون الفرعية إلى ما وصل اليه الغربيون . ولكنا لا نشك فى أنهم تفوقوا فى بعضها تفوقاً خاصاً وبلغوا فى صناعة الزخارف مبلغاً يشهد بعبقرية نادرة وخيال واسع

ولما كان تصوير المخلوقات الحية مكروهاً فى الاسلام ، فقد أصبح عماد الزخارف الاسلامية الأشكال الهندسـية والرسوم النباتية مضافاً إليها عامل جديد هو حروف الكتابة بالخط الكوفى أو بالخط النسخى أو بغيره من الخطوط ، ونحن نعلم كيف اهتم المسلمون وخاصة الفرس بتحسين الخطوط وزخرفتها ؛ وقد فطن الى ذلك صنّاع الغرب ، فأخذوا أحياناً يقلدون الكتابة العربية على مصنوعاتهم ، ومن أمثلة ذلك صليب إيرلندى من البرونز المذهب يرجع عهده الى القرن التاسع ، وهو محفوظ الآن بالمتحف البريطانى وعليه بالخط الكوفى « بسم الله » ، وفى المتحف البريطانى أيضاً عملة ذهبية ضربها الملك أوفّا Offa الذى حكم مرسية من سنة ٧٥٧ إلى ٧٩٦ ، وهذه العملة نقلها الملك المذكور عن دينار عربى ضرب سنة ٧٧٤ فنقل فيما قلّده التاريخ الهجرى والعبارة العربية المكتوبة عليه ، ولا نشك أنه فى الحالتين لم يفقه العمّال الغربيون معنى الكتابة العربية ، فنقلوها كزخارف فحسب ، وقلّدهم فى ذلك كثيرون من بعدهم

وقد كان للخزف الاسلامى أثر كبير فى تطور صناعة الخزف فى أوربا ، وقد كان الغربيون ينسبون اللونين الأزرق والأبيض الصينى فى هذه الصناعة إلى بلاد الشرق الأقصى ، ولكن الحقيقة أن الصينيين كانوا يسمون هذا اللون الأزرق بالأزرق الاسلامى ، لأنهم أخذوه عن إيران الاسلامية فى القرن الخامس عشر

ومن المعروف أن صناعة الخزف ذى البريق الذهبى lustre قد ارتقت فى اسبانيا رقياً عظيماً ، فكانت مصانعها تشتغل لحساب كثير من البابوات والكرادلة والأسرات النبيلة فى اسبانيا والبرتغال وإيطاليا وفرنسا ، ويروون أن الكردينال اكسيمينيز قال عن هؤلاء الصناع « الكفرة » : « ينقصهم ايماننا وتنقصنا صناعتهم »

وقد ظلت صناعة الخزف الاسبانى العربى hispano-maurespue فى الأندلس حتى القرن السادس عشر ، وتعلمها الايطاليون فى القرن الخامس عشر ، فتأثروا فى الصناعة والزخارف والأشكال بما كانوا يستوردونه من اسبانيا ، وأصبح أنموذجاً للصناع فى Faenza و Urcino و Deruta ، وأطلق على هذه المصنوعات اسم مايولكا majolique نسبة الى جزيرة مايوركا من جزائر البليار الاسبانية

هذا وقد وصل الى الفنون الغربية من إيران وتركيا رسوم بعض الزهور التى لم تكن معروفة فيها حينئذ إلا بفضل رسومها على الخزف الاسلامى الوارد من الشرق الأدنى منذ القرن الرابع عشر

ولم يكن أثر صناعة المعادن الاسلامية فى أوروبا بأقل من أثر صناعة الخزف ؛ ولن يستغرب ذلك من يعرف ما وصلت اليه هذه الصناعة من التقدم فى عصر الفاطميين والمماليك ومن قرأ

ما دونه المقريزى عن كنوز المستنصر بالله

ومما أخذه الأوربيون عن الشرق الاسلامى الاسطرلاب ، وهو آلة فلكية لقياس بُعد الكواكب . اخترعها الأغريق وحسّنها بطليموس الجغرافى ثم علماء الفلك من المسلمين ، حتى أخذها عنهم علماء الغرب فى القرن العاشر . وفى المتحف البريطانى أقدم إسطرلاب عليه تاريخ صنعه أحمد ومحمود ابنا ابراهيم الاسطرلابى الاصفهانى سنة ٩٨٤ ، وفى المتحف نفسه اسطرلاب انجليزى تاريخه سنة ١٢٦٠ — وقد ظل البحارة يستخدمون الاسطرلاب فى مراقبة الجو وشؤون الملاحة ، حتى خلفته اختراعات أخرى فى القرن السابع عشر

وقد كان للأوربيين فى القرون الوسطى نوع من أوانى المياه كانوا يستعملونه فى غسل أيديهم قبل الأكل وبعده ، وأطلقوا عليه اسم aquamaniles ولا ريب أن صناعته متأثرة بما كان عند المسلمين من أوانٍ مماثلة على شكل طيور أو حيوانات من البرونز والنحاس ، ولعلّ أحسن مثل مكبّر لتلك الأوانى — وإن كان عظم حجمه يفرقه عنها — هو ذلك العقاب النحاسى الكبير المحفوظ الآن بالكامبو سانتو بمدينة بيزا فى إيطاليا ، والذى يظن أنه من عصر الفاطميين بدليل ما عليه من نقوش كوفية وزخارف هندسية ، وصور حيوانات وطيور ، وليس معروفاً مَن الذى نقله إلى ايطاليا ، ولا فى أى المناسبات كان ذلك

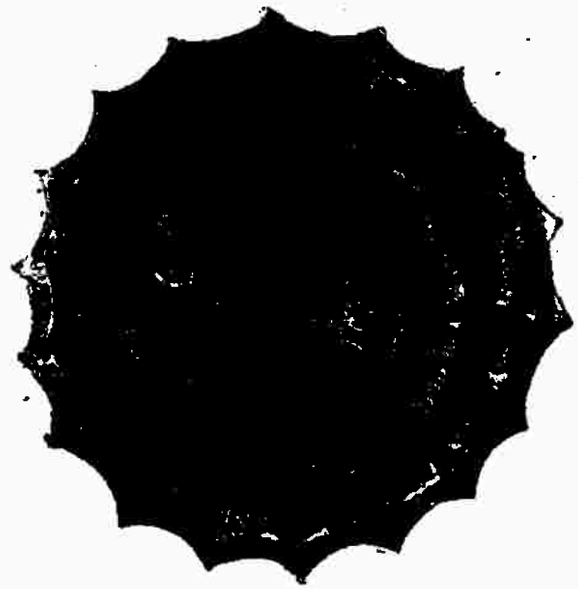

طست من البرونز من صناعة البندقية فى القرن الخامس عشر وهو محفوظ الآن بدار الآثار العربية بالقاهرة

وقد صنع المسلمون الثريات والأوانى والصناديق والكراسى والتنانير والمباخر من النحاس المكفّت بالفضة والذهب ، وكثر الاقبال على هذه التحف فى أوروبا ، وخاصة بعد أن عظمت تجارة الجمهوريات الايطالية فى الشرق منذ الحروب الصليبية ، وبلغت أوج عزها فى القرن الخامس عشر

والواقع أن اضمحلال هذه الصناعة بدأ فى الشرق منذ القرن الخامس عشر بعد ظهور المغول وغارة تيمورلنك على دمشق سنة ١٤٠١ ، ولكن المدن الايطالية وخاصة البندقية ورثتها عن الشرق ؛ وظهرت فى المدنية الأخيرة مدرسة من رجال الفن عملت على التوفيق بين ذوق الغربيين فى عصر النهضة ، وبين الصناعة والزخارف الاسلامية . ومن المعروف أنّ صنّاعاً من الشرق اشتغلوا بصناعات أجدادهم فى البندقية وجنوه وبيزا وفلورنسا . وفى المتاحف والمجموعات الأثرية أمثلة كثيرة من التحف الفنية النفيسة المصنوعة فى ايطاليا فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، والتى تشهد بحسن الذوق وجمال الزخرف ودقة الصناعة . هذا ولا يفوتنا الاشارة الى ما فى اللغة الايطالية وغيرها من اللغات الأوربية من الألفاظ الاصطلاحية المنسوبة الى المدن الاسلامية فى صناعة المعادن كدمشق وبلاد العجم . وكان لصناعة الزجاج المموه بالمينا شأن كبير عند المسلمين كما يتجلى من مجموعة المشكاوات النفيسة المحفوظة بدار الآثار العربية بالقاهرة ، والتى يرجع عهدها الى القرنين الرابع عشر والخامس عشر

وقد تقدمت صناعة الزجاج فى البندقية منذ القرن الثالث عشر تقدماً كبيراً ، وبدأ البنادقة منذ القرن الخامس عشر يقلدون صناعة الزجاج عند المسلمين ، فما لبثوا أن برعوا مثلهم فى تمويه الزجاج بالمينا ، وانتشرت هذه الصناعة من البندقية الى غيرها من المدن الأوربية ، وظهرت زخارف وطرز جديدة دون أن تزول القرابة بينها وبين النماذج الاسلامية الأولى

أما أساليب المسلمين فى نقش الخشب وزخرفته وتطعيمه ، فقد ظهر تأثيرها فى فنون البلاد الأوربية التى كان لها بالعرب اتصال مباشر كالأندلس وجنوب فرنسا وصقلية ، ولكن هذا التأثير لم يكن كبيراً ، لأن هذه البلاد لم تكن أحوالها الجوية تستدعى ما اضطر اليه المسلمون من استعمال طريقة المربعات بله

ان رسم الخطوط والزخارف الهندسية لم يكن ليلعب فيها الدور الكبير الذى لعبه فى بلاد الاسلام

مشكاة من الزجاج المموه بالمينا من صناعة البندقية وعليها كتابات باسم السلطان قايتباى

وكذلك قلد البنادقة صناعة التجليد الأسلامية فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، ونقلوا بعض أساليبها ، ونقلها عنهم غيرهم من صنّاع الغرب ، فلا عجب إن وجدنا حتى الآن فى صناعات التجليد الأوربية المختلفة كثيراً من تفاصيل الصناعة الأسلامية وزخارفها . ومعروف أيضاً أن بعض المجلدين المسلمين نزحوا إلى البندقية وعلّموا البنادقة اختراعات المسلمين فى هذا الميدان. ولا يزال « اللسان » المعروف فى صناعة التجليد العربية موجوداً فى تجليـــد بعض الكتب الأوربية ، ولا سيما كتب المحاسبين وأصحاب المصارف . ومما اشتهر به المسلمون فى الأندلس وصقلية صناعة الصناديق من العاج ، وفى المتاحف أمثلة عديدة منها ، وبينها وبين أمثالها من صناعة أوربا فى القرون الوسطى قرابة تنبئ عن تأثير الصناعة الاسلامية

بقى أن نتحدث قليلاً عن المنسوجات فى البلاد الاســلامية وعن أثرها الكبير فى صناعات النسج الأوربية ولسنا نجهل أن صـــناعة النسج كانت زاهرة فى فارس ومصر وسورية قبل الفتوح العربية ، ولكن تعضـــيد الخلفاء والأمراء ، وتولى الحكومة إدارة المصانع ، وعادة الخلع التى كان يمنحها الملوك وأولو الأمر ، كل هذا جعل الصناعة تخطو فى سبيل الكمال خطوات واسعة ، وكثر الاقبال على المنسوجات الاســلامية وتهافت على شرائها التجار فعمت شهرتها أوربا فى العصور الوسطى ، وأصبحت أكثر أنواع المنسوجات فى ذلك العهد تحمل أسماء شرقية أو تنسب إلى مدن إسلامية . ولما رأى التجار ذلك هب كثير منهم لانشاء المصانع فى أنحاء أوروبا المختلفة لمنافســة مصانع الشرق الأدنى والأندلس ، وكان العرب قد أقاموا فى صقلية مصانع شهيرة للنسج ظلت عامرة بعـد أن تقوض سلطان المسلمين فى الجزيرة ، فتعلم الايطاليون فى هذه المصانع أسرار النسج الاسلامى ودقائقه ونقلوه إلى بلدان إيطاليا المختلفة ، وحفلت المنسوجات الحريرية الايطالية فى القرن الرابع عشر بالزخارف الشرقية حتى الكتابات العربية منها

وبدأ النساجون الأتراك والايطاليون منذ القرن السادس عشر ينافس كل منهما الآخر ويقلّده ، حتى لقد يصعب أحياناً التفرقة بين مصنوعاتهم ؛ وظهرت فى الأسواق بعد ذلك أحزمة من القماش من صـناعة أوروبا على الطراز الشرقى وأطلق عليها اسم الأحزمة البولونية نسبة إلى بولندة حيث كثرت صناعتها

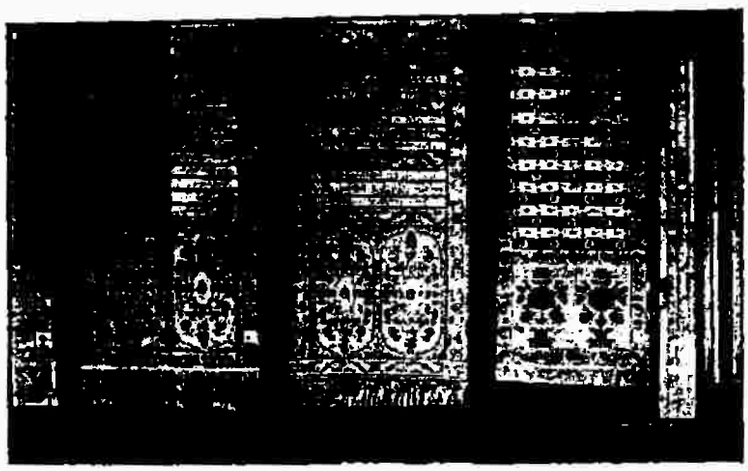

أحزمة من النسيج من صناعة بولندا على الطراز الشرقى

وكان السجاد أيضاً مما أخذه الأوربيون عن الشرق منذ القرن الرابع عشر ، فتعلم الصناع الغربيون صناعته من المسلمين واحتفظوا مدة طويلة بالأساليب العربية فى زخارفه